

هل الصوفية هم حماة علوم التزكية؟

تردد في الخطاب الديني المعاصر مقوله التزكية عن التوحيد، أو تجعل بديلاً عنه، أو مفادها أن الصوفية هم الحماة الحقيقيون ُستعمل لتبرير ممارسات ُضعف معنى لعلوم التزكية، وأن غيرهم منشغل بالجدل والحق أن علماء السلف كانوا من أعمق العقدي أو الفقهي على حساب تهذيب الناس اشتغالاً بالتزكية، لكنهم لم يفهموها على أنها ذوق منفلت أو مشاعر مجردة، بل على أنها عبادة قائمة على العلم والاتباع. فمن تأمل مدوناتهم وجد بآيا واسعًا في تهذيب النفس، والورع، ومحاسبة القلب، وقمع الشهوات، ومعالجة الرياء، وتربيبة الإخلاص، وصيانت اللسان، وتعظيم حقوق العباد. ولم تكن هذه العلوم هامشًا عندهم، بل كانت جزءًا من الدين



أول ما ينبغي تقريره أن التزكية في مفهومها الذي يتبعدون به. بل إن اشتغالهم بالعقيدة القرآني تقويم على أمرين متلازمين لا ينفك الصحيدة كان في صميم التزكية؛ لأن القلب لا يزكي مع فساد التصور عن الله أو مع ضعف أحدهما عن الآخر: إصلاح الباطن بالأخلاق والعبادة ومجاهدة النفس، وإصلاح الاعتقاد بتوحيد الله وإخلاص العبادة له. ومن هنا كان الخلل المنهجي أن ُفصل الإخلاص حين تتجاوز الحدود المشروعة في التعظيم والتعلق.

نفس وإصلاح القلب. وهذه دعوى تحتاج إلى تحرير؛ لأن التزكية في الإسلام ليست عنواناً حزبياً ولا ميراثاً خاصاً بطائفية، بل هي مقصد أصيل من مقاصد الولي، قامت عليه دعوة الأنبياء، وتتابعت عليه جهود

العلماء جيلاً بعد جيل.

ثم إن التاريخ العلمي الإسلامي لم يعرف قطعاً يبين العقيدة والتزكية في مدرسة السلف، بل كان التوحيد أصل البناء، والتزكية ثمرة هذا الأصل. ولهذا كانت محبة الصالحين عندهم محبة منضبطة لا ترفعهم فوق منزلتهم البشرية، ولا تمنحهم خصائص ليست لهم، ولا تفتح أبواب الاستغاثة أو التعلق القلبي بما لا يليق إلا بالله. فالتزكية تنتهي إلى تعظيم الله وحده، وإخلاص الطلب له، واستقامة السلوك على الشريعة، لا إلى صناعة حالة اجتماعية حول أشخاص أو مؤسسات.

ومن هنا يظهر موضع الإشكال في بعض الخطابات المعاصرة التي ترفع شعار التزكية، ثم يجعل جزءاً كبيراً من حضورها قائماً على قصائد المدح في الأشخاص الأحياء أو التعظيم الإعلامي لهم. فإن كانت التزكية هي تهذيب النفس وتخلি�صها من العجب والتعلق والبحث عن الجاه، فأي معنى تزكوي يبقى حين تتحول المنابر إلى مدائح شخصية، أو حين يصبح الولاء الديني مشدوداً إلى أسماء بعينها، مثل الإكثار من قصائد الثناء في شخصيات معاصرة كعلي جمعة أو أسامة الأزهري أو غيرهما؟ ليس المقصود الطعن في أشخاص بأعيانهم، وإنما نقد آلية صناعة الرمز حين تُقدم بدليلاً عن العلم والعمل، أو تُغذّي تعلقاً غير صحي في قلوب العامة.

إن التزكية الحقيقية لا تُقاس بكثرة الأناشيد ولا بحجم الحشود ولا بمدى حرارة العاطفة، بل تُقاس بصدق التوحيد، واتباع السنة، واستقامة المعاملة، وترك الظلم، وحفظ اللسان، وإصلاح القلب من أمراضه الكبرى: الرياء، والكبر، والحسد، وحب المدح، والتعلق بالخلق. ومن ادعى احتكار التزكية لطائفة فقد صادم حقيقة الدين، لأن تزكية النفس وظيفة كل مسلم، وحراسة هذا العلم مسؤولية العلماء كافة.

المصادر:

- ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم
- ابن القييم، مدارج السالكين
- ابن تيمية، العبودية
- ابن أبي الدنيا، محاسبة النفس
- ابن الجوزي، تلبيس إبليس
- التنووي، رياض الصالحين